

أسلوب المتنبي

للمؤلف عبد الوهاب محمود

المدرس بكلية الآداب

الأسلوب هو القالب الذي يُفرغ فيه الشاعر شعره ، والنوال الذي ينسج عليه الكاتب كتابته ، والطابع الذي يطبع به الخطيب خطبته أو القاصُّ قصته وهو صورة من النفس ، ولون للذهن ، ومראה للخلق ، بل هو كما قال بوفون : (Buffon) الأسلوب هو الرجل نفسه (Le style est l'homme même) وقال القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة :

وقد كان القوم يختلفون وتباين أحوالهم فترك شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعمر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ؛ فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، فترى الجاني الجلف ، كثر الألفاظ ، معقد الكلام ، وعمر الخطاب ، حتى إنك لتجد صورته في ألفاظه ، وسحته في لهجته ؛ قال كسرى لحاجب بن زرارة : « يا حاجب ، ما أشبه حجر التلال بألوان صخورها ! » قال حاجب : « بل زئير الأسد بصولتها »

فالشاعر إذن يطبع الكلام بطابعه ويلونه بشخصيته ويصبغه بأصباغ نفسه ، فأسلوب المتنبي هو المتنبي نفسه . فقد كان ألواناً وأنماطاً . تبعاً لحالات طبعه وأنماط حياته . وتنوع مزاجه

كان أبو الطيب كما وصفه الواصفون : رجلاً ملء العين . قوياً بديناً ، جسيماً خليقاً ، عادى الخلق ، قوى الأساطين ، وثيق الأركان ، جيد الفصوص ، فيه غرابة في زيه . هذه هي أوصافه الجسمية

أما طابعه وأخلاقه فقد كان أبو الطيب بعيد الآمال ، كبير المطامع ، كثير الزهو بنفسه ، دائم الإعجاب بمواهبه ، وهو كما قال الخاتمي : قد التحف برداء الكبر

والعظمة ، يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وإن الشعر لا يقترب من عذبه سواء ،
ولا يرى أحداً إلا وهو يرى لنفسه مزية عليه . وكان قليل الميل إلى الهزل
والنزوع إلى اللهو والطرب ، إذ قلما يجتمع اللهو والألم في النفس الكبيرة .
الطموح :

وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعاب

أفيقا ، تخار الهم بغضى الجحرا وسكرى من الأيام حببني السكر
تسر خليلي الدامة ، والذي بقلبي يأتي أن أسر كما سراً
وكان قد طمع في الملك وحن به جنونا ، وكان صريحاً لا يعرف المداراة ولا
المداجاة ، حاد المزاج ، مرهف الحس ، سريع التأثر ؛ إذا غضب اهتزت أعصابه
وثارت نفسه ، فأصبح كأنه زوبعة نائرة ، أو بركان فائر ، أو نار مندلعة
وكان شجاعاً مقداماً ، عاش متبرماً بالحياة ساخطاً عليها ، حاقداً للوك عصره
لأن الأيام لم تنله أمنيته . فالحياة في نظره حرب ضروس ، علاقة الإنسان فيها
بالإنسان علاقة المقاتل بالمقاتل ؛ والقوة في نظره هي أصل الأخلاق والفضائل ،
والسيادة هي غاية الحياة :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللثام

فلا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتك والبكر
وتضرب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والمسكر الجحر
وترك في الدنيا دويماً كأنما تداول سم المرء أنعمه العشر
هكذا كانت أخلاق المتنبي : نزوع إلى الكفاح والنضال ، وبعد عن الضحك ،
وطبع صريح لا يتحرك إلا لمناظر الفخامة والروعة ، ولا يسحر إلا بأبهة العظمة
وشارات الصولة . وأكبر الظن أنه لم يعشق في حياته حتى يذله المشق ويخضد

من شو كته ، وبلين من شكيمته ، ويهذب من غروره ، ويسلس من قياده ؛
 فين أخلاق المتنبي وبين المرأة بحافة ؛ وهو قد صرّح بذلك في شعره حيث يقول :

وترى المروّة والغُتوة والأبوّة في كلّ مليحة ضراً لها

من الثلاث السانماتي لديّ في خلوقي ، لا الخوف من تبعاتها

فهذه الأخلاق وتلك الطباع ترى ماثلة في أسلوب أبي الطيب شاخصة في شعره .
 وإليها مراد جل محاسنه ، ومنها يصدر أكثر مساوئه

فأخلاق المتنبي أحد عوامل ثلاثة أثرت في أسلوبه . والعامل الثاني هو البادية ؛
 فالمتنبي ابن البيد والفيافي . من أفق البادية نبت أسلوبه ، وفي جو البادية نما خياله ،
 فهي أول مدرسة تلقى فيها تعاليمه ، وأول بيئة سطرت آثارها في ذهنه ؛ عرّضت
 عليه الحضارة طراوتها ونعومتها فلم تنزع به عن بدويته ولم تنسه حب باديته . والعامل
 الثالث دراساته

فقد عُرف المتنبي بأنه لازم أهل العلم والأدب ، وأكثر من غشيان دكاكين
 الوراقين ؛ فكان علمه من دفاترهم ؛ وقد رُزق حافظه قوية — وهي عماد الأدب —
 قال أبو الفتح عثمان بن جني : كان المتنبي يحفظ ديوان أبي تمام والبحتري
 ويستصحبهما في أسفاره ويمجدهما ، فلما قُتل توزعت دفاتره ، فوقع ديوان البحتري
 إلى بعض من درس علىّ وقد رأيت خط المتنبي وتصحيحه فيه .

فهو من حفاظ اللغة ورواة الشعر ؛ ليس هذا فقط ، بل قد نظر في كتب
 الفلاسفة والمناطقة ، لاسيما أنه في جنب سيف الدولة ؛ حيث اتفق له هناك كلّ
 ما يمين على النبوغ ونضوج القريحة .

نجد كل ذلك مسجلاً مسطراً في أسلوب شعره ، ونسيج بيانه . فأسلوب
 المتنبي في جملته وتفصيله هو أسلوب القوة والمظلمة ، والرجولة والفتوة ،
 لا أسلوب الضعف واللين ، والتوشية والرقّة .

فلألفاظه دويّ ومضاه ، كأنها أشخاص حية تتحدث إليك وتنطق وعليها
 مهابة ووقار ؛ أو كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم للطراد .
 وتراكيه كأنها حصون من فولاذ أو قلاع من صوّان ، تقرأ شعره فتُحس

جلجلة الطبول وقصف الرعود ودوى المدافع وجرجرة السيول ، تملأ سميك ألفاظه ،
وتفيض بشديق كلماته ، وتلمح من خلال ذلك شخصية المتنبي قوية للكفاح
والنضال لا للاستخذاء والتخسع بالأقدام .

وهذا أثر من أخلاقه ولون من طباعه وظل من بداوته .
وأصدق ما يشاهد ذلك في وصفه للمبارك ؛ ونفخه بنفسه ومدحه لمن أحبه
وأخلص إليهم كسيف الدولة ، وفي أهاجيه التاريخيه كهجائه لكافور ؛ حتى في غزله ،
فهو — على أنه غزل فني صناعي — مملوء بالرجولة والزم المسدد والنفس
الآية العنيفة .

وحتى في الماني التي يقلد فيها غيره يأخذها ويكسوها من بروده الحسنة
وثيا به الصلبة .

قال أبو الشيص الشاعر :

لقد جرى الحب منى مجرى دى في عروقي
فقال المتنبي في نفس طويل وباع واسع وألفاظ ممدودة :
جرى حبها مجرى دى من مفاصلى فأصبح لى عن كل شغل بها شغل
وقال البحتري في وصف القلم :
تغنوا له وزراء الملك خاضعة وعادة السيف أن يستخدم القلما
أخذ المتنبي الشطر الثاني فقال بعد أن نسجه على منواله ، وسكب فيه روحه
الصاخبة :

حتى رجعت وأقلامى قوائلى المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدأ بعد الكتاب به فانما نحن للأسياف كالخدم
وقال دعبل فى أسلوب ابن رقيق غزلى :
لأناخذنا بظلامتى أحداً قلبى وطرفى فى دى اشتراكا
وقال المتنبي :

وأنا الذى اجتلب النية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل

وقال أبو نواس في تواضع وهراة :

سنة المشاق واحدة فاذا أحبت فاستكن

فقال أبو الطيب وملاً به الأفواه وهز الأسجاع :

تذل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لا يذل ويخضع

وقال أبو نواس :

وكلت بالدهر عيناً غير غافلة بجود كفيك تأسو كل ما جرحا

أخذه أبو الطيب فقال :

تتبع آثار الرزايا بجوده تتبّع آثار الأسنة بالقتل

وقال أبو تمام :

غمرته الملا على كثرة الأهل فأضحى في الأفريقين جنباً

وقال أبو الطيب :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حينما كانا

وقال ابن المعتز :

وما يُنقص من شباب الرجال يُرد في نهاها وألباسها

وقال أبو الطيب :

ليت الحوادث باعثنى الذي أخذت منى ، بجلي الذي أعطت وتجريبي

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وقال أبو تمام :

قريب الندى نأى المحل كأنه هلال قريب النور ناء منازلـه

وقال أبو الطيب :

كالشمس في كبد السماء وضوءها يمشى البلاد مشارقاً ومنارياً

وقال البحتري :

وإذا ما تنكرت لي بلاد أو صديق فأنى بالخيار

قال أبو الطيب وخلع عليه من مزاجه وقوة روحه لباساً متيناً :

إذا صديق نكرت جانبه لم تعني في فراقه الحيل

في سمة الخافقين مضطرب وفي بلاد من أختها بدل
وقال البحرى :

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسمى إليك النبر
وأبو تمام :

لو سمت بقمة لا عظام أخرى لسمى نحوها المكان الجديب
فيقول أبو الطيب :

تحاسدت البلدان حتى لو أنها نفوس لساو الشرق والغرب نحوكا
أما في نسيه وغزله فيقول :

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والحب جار على قلبي وما عدلا
والوجد يقوى كما تقوى النوى أبدأ والصبر ينحل في جسمي كما ينحلا
لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا
بما يجفنيك من سحر صلي دنفا يهوى الحياة وأما إن صددت فلا

والتنبي في غزله خضع للمؤثرات الثلاثة : الأخلاق والبادية والدراسات
فأخلاقه صيرت غزله قويا خشناً بعيداً عن الميوعة واللين والضعف والتأنت
أما أثر البادية في غزله . فانه درج فيه على مذهب شعراء البادية فهو القائل :
إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم
فلست ترى في أضعاف نسيه آثار نفس ذلها الهوى وأسمعها الحب ، فلا كب
حرى ولا قلب مقروح وإذا تنزل كان مثله الأعلى الفنى هُنَّ الأعراسيات
البدويات :

من الجآذر في زى الأعارب حمر الحلى والمطايا والجلابيب
إن كنت تسأل شكاً في معارفها فمن بلاك بتسديد وتمذيب
أزورم وسواد الليل يشفع لى وأنتنى وياض الصبح يعزى لى
وأما أثر الدراسات في هذا الغزل فيمكن أن نعرف أنه غزل صناعى لا حقيقى
فهو في جلته صور قد صورها قبله كثير من الشعراء فاختر أبو الطيب منها
ما يلائم حياته : حياة رجل قائد حربى منكود الحظ سى الطالع تلوه الكآبة
ويتلمس الحرمان

وهنا من الحق علينا لأبي الطيب أن تنصفه فنقول : إنه وإن كان في غزله مقدّمات
لكثير من الشعراء ، مزدّداً ما اعتادوه من صورهم : كتشبيه القوام بالنصن ،
والوجه بالشمس أو القمر ، والشعر بظلام الليل — إنه مع ذلك له صور مخترعة
مفانئة ، تدل على عبقرية وصفاء قريحة ، وذوق فني بالغ ، من ذلك قوله :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر أيّ الظاعنين أشيع
أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس تسيل من الآماق والسم أدمع

أتراها لكثرة المشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب وردوا رقادي فهو لحظ الجباب

عزيز أسامن داؤه الحدق النّجّل عيائه به مات المحبون من قبل
فمن شاء فليظفر إلى فنظري نذير إلى من ظن أن الهوى سهل
وما هي إلا لحظة بعد لحظة إذا نزلت في قلبه رحل العقل

على أن هذه المقدمة من النسيب التي صحبت التنبي في كثير من قصائد المديح ،
قد يتركها أحياناً ويستبدل بها مقدمة فلسفية من الشعر الغنائي يث فيها أحلامه
وتجاريبه وشكواه . يشاهد هذا الأسلوب كثيراً في مدائحه لبدر بن عمار ،
ولسيف الدولة ، ولكافور ؛ والآن لقد حان أن ننقل القول على أسلوبه في المدح ،
وهو الباب الذي استغرق جل ديوانه . فأسلوب التنبي في المديح لم يكن أسلوباً
واحداً ، بل هو عدة أساليب ، تبعاً لاختلاف المقامات وتنوع الجالات والأزمات
النفسية التي كان يقع فيها

فتارة نجد أسلوبه في المدح لا تبدو عليه دلائل التعظيم ولا أمارات الصدق ،
بل هو مدح للضرورة الملحة والحاجة القاسية ، فيشيع في هذا النوع المبالغة
المعقولة ، والتشبيه الممتن ، وانحلال التكلف ، والفن البتذل ، والمقدمات الغزلية ،

والترايب السقيمة المنتقدة : كما في مدحه لجل من لقيهم في أول أطوار حياته من أهل أنطاكية وحلب واللاذقية ومنبج ، من صفار الأمراء الأعاجم وضامف الولاة والقضاة . وفي هذا النوع من الأسلوب يذكّر نفسه ويقتخر بمظمتة وربما كان نصيبه هو من المديح أكبر من نصيب المدوح

وأحياناً نجده يقلع عن التقليد ويخلص للممدوح حيث وجد فيه مثله الأعلى الذى يتعشقه ، والرجل القوى الذى يتصوره . وبعد أن كان في أسلوبه الأول ومنهجه السابق يُنذر ويتوعد ويتكلف ويتصنع ، إذا به يقلل من التكلف ويكف عن التعميد ؛ فيصبح الأسلوب مشرقاً ، والبيان مستقيماً متيناً ، يترك فيه المقدمات الغزلية وينسى الفخر بنفسه ، إلا إذا أحس دس الدساتين وسماية الواشين . ومن هذا النوع مدحه لسيف الدولة ، فإنه قد بلغ فيه الذروة وسما فيه إلى القمة

وتارة نجده يعتمد أن يكون أسلوبه في المديح مؤلفاً ، فيصور آلامه ومصائبه ويصف دهره وأهله ، ويكشف عن نفسه وآمالها ، ويأتى بالأخيلة الخبيثة ، والمبالغات التهمكية ، والتصورات الخداعة ؛ فهو مديح أشبه منه بالهجاء ؛ وذلك كما في مدح كافور . غير أن هذا الأسلوب سهل كله ، خلو من الركاكة والسقم وضعف النظم ، ويمتاز هذا النوع بخصوبة الحكم وضرب الأمثال . ولنتكف للتمثيل لذلك بما يأتى من قصيدة في مدح كافور :

إنما يفخر الكريم أبو السكِّ بما يتنى من العلياء
تفضحُ الشمسُ كلما ذرَّتْ الشمسُ بشمسٍ منيرة سوداء
إن في ثوبك الذى المجدُ فيه لضياء يُزرى بكل ضياء
إنما الجلد ملبس ، وبيضاض النفس خير من ابيضاض القباء
من لبيض الملوكة أن تبدل اللو ن بلون الأستاذ والسَّحناء
يارجاء الميون في كل أرض لم يكن غيرَ أن أراك رجائى

وهذه أبيات من أخيب المديح وآلم الهجاء ، لأن ذا اللون الأسود ليس أمرًا عليه من أن تذكر له الألوان ، ولا سيما الأبيض منها . وبضدها تتميز الأشياء .

هذا هو أسلوب المتنبي في المدح . على أن هناك أسباباً أخرى أتاحت
لأبي الطيب الإجابة في المدح وهو بجانب سيف الدولة :

(١) فإنه فضلاً عن أن المتنبي وجد في سيف الدولة الرجل العربي المستقل
الذى يعظم العرب ويحاسن القرامطة الذين يميل أبو الطيب إلى مذهبهم وعقائدهم ،
فأنه يتفق معه في المبدأ ، وهو البحث عن المجد من طريق الحرب والقوة ؛ فوجد
فيه المثل الأعلى الذى يصبو إليه ويهيم به .

(٢) ثم رأى أنه دخيل على شعراء سيف الدولة وهم أكثر ، فلا وسيلة للتغلب
عليهم إلا من طريق الشعر وهو كل بضاعته ، فاهتم أن يجيد ، وتحركت نفسه
للقول بماطفة صادقة وشعور طبيعى للمحافظة على هذا الرغد من العيش والترف
من النعيم .

(٣) ثم كثرة عيون النقاد حوله ومنهم سيف الدولة نفسه ؛ وليس من الهين
اليسير على نفس كنفس المتنبي أن تستسيغ النقد وتجزئ التنقص منها وتنام على
الخط من قدرها .

على أن شدة التحرى هذه وحمل النفس على الإبداع والاختراع والترفع عن
الطيران فى جو الشعراء الذين حوله ، أوقعه فى التعمق والإغراب والإيهام
والغموض لقصور الألفاظ واتساع المعنى .

أما فى الهجاء فله أسلوب واحد موجه ، ولسان مر ، تبدو فيه نفسه النارية
وخلفه الصريح وشجاعته وعصية مزاجه ، فلا يدارى ولا يصانع ، وهو صورة
لأخلاقه إلا أنها عكسية مقلوبة ، إذ كان يهجو أعداءه بضد ما كان يمدح به أوليائه .
وبعكس ما يراه هو مثلاً أعلى الرجولة ، وصورة صادقة للفضائل ؛ فهجاؤه أظهر
أثر للطبع والخلق والزجاج ؛ وهو صورة لصدق الماطفة وحرارة النفس المحرومة
الحاقدة الساخطة . وقل أن نجد فيه تمقيداً أو ركة أو هلملة فى النسيج أو تكراراً
فى الحروف مما عيب مثله عليه ، وهو متأثر فيه بأسلوب ابن الرومى من حيث
ذكر النقائص الخلقية والصفات الجسمية .

أما أسلوب المرائى عند أبي الطيب فهو من الأساليب التى تحمل شارته وتلح عليها توقيمه

فمادة الشعراء فى مرثيتهم أن تفيض عيونهم بالدمرات ، وقلوبهم بالحسرات وصدورهم بالزفرات ، ونفوسهم بالأنين ، وألفاظهم بالدمع السخين ، كما فى شعر الخنساء مثلاً أو ابن الرومى فى رثاء ولديه .

أما شاعرنا فى رثائه — وقد رثى عشرة أشخاص — فقد كان حزنه حزن فيلسوف ، وبكاؤه بكاء قائد حربى ، وألمه ألم متمرد ، وحسرتة حسرة عظيم ساخط : ما خضع ولا ذل ، ولا استسلم ولا ضعف

هذا الأسلوب نجده فى رثاء من يهمهم أمره ويمتتون إليه بقرابة أو صلة : كـرثائه فى جدته ، وأم سيف الدولة وأخته وابنه ، فقد ملأ رثاءهم بالسخط على الحياة والتبرم بالدنيا وأهلها وبالحكم البالغة والوصف القوى

وله أسلوب آخر فى المرائى يظهر عليه التقليد والصناعة والضعف ، وفراغ القلب من الألم والنفس من الحزن ، وذلك لأول عهده بالرثاء ؛ فقد رثى ابن إسحق التنوخى ولم يباغ عمره العشرين حينذاك بقوله :

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب فى التراب تمور
ما كنت أمل قبل نشك أن أرى رضوى على أيدى الرجال تسير
خرجوا به ولكل باك خلفه صمقات موسى يوم دك الطور
والشمس فى كبد السماء مريضة والأرض واجفة تكاد تمور
أما فى رثاء والده سيف الدولة ، فاقرأ له :

نمد المشرفة والموالى وتقتلنا المنون بلا قتال
نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال
أما فى حلبة الوصف فقد كان أبو الطيب مجلياً ، ولا سيما فى وصف المارك ؛ إذ كان لروحه وطبعه الأثر البالغ فيها ؛ فشعره فى وصف الحروب صورته الناطقة أو هو كما قال ابن الأثير :

إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها . وقامت أقواله للمسامع مقام أفعالها .

فتحس وأنت تقرأ شعره صدق الشعور والمقدرة الفنية في التصوير ، والافتنان في الوصف ، والدقة في الخيال

وليست إجابة أبي الطيب في وصفه للمبارك فحسب ، بل هو قد أحسن في وصف البادية كذلك : من صحارى وجبال ، وخيل ونياب ، ووفق في وصف الحيوانات : من ظباء وكلاب سيد وآساد .

وهو في هذه الأوصاف يظهر في أسلوبه أثر البادية أولاً ، حيث شاع فيه الغريب من اللفظ ، ثم أثر ذهنه وحاسته الفنية ثانياً ، حيث رزق أبو الطيب دقة الملاحظة ، والمقابلة بين الأضداد والألوان . فما جاء في وصف أسد في غيله وأجته :

في وَحْدَةِ الرِّهَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَمُرُّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَا
يَطَأُ الثَّرَى مَتَرَفًّا مِنْ تَبْهٍ فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجْسُ عَلِيلاً
وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوخِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إَكْلِيلَا

وله في وصف ذقن الأيائل وهو نوع من التيوس الجبلية :

لَهَا لِحْيٌ سَوْدٌ بِلَا سَبَالٍ تَصْلُحُنَ لِلْإِضْحَاكِ لَا لِالْإِجْلَالِ
كُلُّ أَثْمَثٍ نَبَتْهَا مِتْفَالٍ لَمْ تُنْفَذْ بِالْمَسْكِ وَلَا النُّوَالِ
تَرَضَى مِنَ الْأَدْهَانِ بِالْأَبْوَالِ وَمَنْ ذَكَرَ الْمَسْكَ بِالْأَمَالِ
لَوْ سُرَّحَتْ فِي عَارِضِي مُحْتَالٍ لَمَدَّهَا مِنْ شَبَكَاتِ الْمَالِ

ولنوازن بين وصف البركة للبحري ، ووصفه للمتنبي حتى يبين لنا من هذه الموازنة مبلغ أثر البادية في وصف المتنبي : يقول البحري :

يَا مَنْ رَأَى الْبَرَكَةَ الْحَسَنَاءَ رَوَّيْتُهَا وَالْأَنْسَاءَ الَّتِي لَاحَتْ مَعَانِيهَا
مَا بَالُ دَجَلَةٍ كَالْفَيْرِ تَنَافَسَهَا فِي الْحَسَنِ طَوْرًا وَأَطْوَارًا تَبَاهِيهَا
كَأَنَّ جَنِّ سَلِيمَانَ الَّذِينَ وَلَوْ إِبْدَاعُهَا فَأَدَقُوا فِي مَعَانِيهَا
تَنْصَبُ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مَعْجَلَةً كَالْحَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا

كانما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبيكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجت الشمس أحيانا يصاحكها وريق الغيث أحيانا يياكها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا، حسبت سماء رُكبت فيها
هذه هي الاخيلة الحضرية التي تناسب حضارة القرن الرابع الهجرى .
والمتنبى يقول :

والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها اللُجُم
كانها والرياح تضربها جيشا ونعى : هازم ومنهزم
كانها - في نهارها - قر حف بها من جناها ظلم
فهي كإيئة مطوقة جرد عنها غشاؤها الأدم

بقي أن نصف أسلوب أبي الطيب في الحكم

أسلوبه في الحكمة والمثل أسلوب سهل مشرق ناصع لا التواء فيه ولا اعوجاج
والفاظه موسيقية عذبة ، نجد فيه كثيراً من المقابلة بين الصفات يزيد في جمالها
الفنى ويكشف عن أغراضها ومعانيها ، وهو من صنفه قد بدت فيه حاسة التعميم
والتمثيل وصوغ المعاني في صورة كلية موجزة مختصرة ، وأظهر شيء في حكمه أنه
صبغها بصبغة نفسه فصدرت وكأنها مراسيم ملكية من غير أن يجهد لها أو
يسوق الحجاج والأمثلة والشواهد على صحتها ؛ فهو يخالف المعرى في ذلك ؛ فالمرى
يتردد ويكثر من الموازنة والتحليل ، أما المتنبى فيسوق حكمه في لهجة قاطمة
لا تقض فيها ولا إبرام ولا هواذة ولا دوران ، بل هو كالواعظ المزمتم يلقى على
الناس عظامه من فوق منبره في صرامة وحزم كما يصنع الأستاذ مع تلاميذه
والشيخ مع مريديه اعتداداً منه بنفسه ووثوقاً منه برأيه . والسرى في خلود حكمته
هو أسلوبها ، وما في صياغتها من قوة وما في بنيانها من متانة ، ولأنها عملية
أو أكثرها عملي يصادفها الإنسان في حياته كل يوم ويلقها من حوادث الأيام
وعبر الزمان ، يقول :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام

خليك أنت لا من قلت خلى وإن كثر التجمل والكلام

لا تمذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

وكن على حذر للناس تستره ولا يفرنك منهم تفر مبتسم

وكل امرئ يولى الجميل محب وكل مكان ينبت العز طيب

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

خاطب العز في لظى ودع الدلّ ولو كان في جنان الخلود

وهو من قول الناس : النار ولا العار .

وانظروا إلى قول عنتره هذا المعنى ولكنه الصياغة مختلفة والأسلوب

ليس واحداً :

ماء الحياة بذلة كجهم وجهم بالعز أطيب منزل

فن المتنبي

المتنبي فنان مُبدعٌ ، ومصور ماهر ؛ فقد رزق دقة في الحس ، وإرهاقاً في الأعصاب ، ورقة في الشعور ، وقدرة على التصوير ، وخصوبة في الخيال ؛ وهذه الخصائص جديرة بأن تخلق منه رجلاً فناناً

وفنه ممثل في الأخيلة البديعة والموسيقى المدوية ، وفي حسن التنسيق وجمال

التقسيم ، والمقابلة بين الألوان

روى أبو الفتح ابن جني قال : قرأت على أبي الطيب قوله :

وقد سارت الأجفان قرحاً من البكا وصار بهاراً في الخدود الشقائق

فقلت : (قرحى) من غير تنوين ، فقال لى المتنبي : إنما قلت أنا (قرحاً) لأنى قلت

بمدُّ يهراً ، فهو إذن كان يقصد إلى هذا الجرس في الألفاظ ، وذلك التقسيم في
الأجزاء ؛ ومن فنه قوله يصف ذكاء بدر بن عمار :

هان على قلبه الزمان فما بين فيه غم ولا جدل
تعرف في عينه حقائقه كأنه بالذكاء مكتحل
أشفق عند انتقاد فكرته عليه منها ، أخف يشتمل

وقوله يصف تمايل الرماح :

تبيتُ رماحه فوق الهوادي وقد ضرب العجاجُ لها رواقا
تميل كأن في الأبطال خمرا عُلِّلنَ بها اضطباحا واعتباقا

وفي هذه القصيدة يقول :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا
ومن التصوير المعجب قوله يصف نفسه بالآلغة وأنه لو عاد شابا لما هان عليه
مفارقة الشيب إلا وقلبه موجه وعينه بالكية :

حُلقْتُ ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفلقت شبيبي موجه القلب باكيا
ووصف موقف وداع وصفَ فنان مصور ، آله حساسة صادقة الحسن :
وجلا الوداعُ من الحبيب محاسنا حسنُ العزاء وقد جُلِّنَ قبيح
فَيدُّ مسلِّمةً وطرف شاخص وحشا يذوب ومدمع مسفوح

واخترع فأبدع في تصوير القلب وقد تواردت عليه الأحداث وتكاثرت عليه
المصائب وتوالت فوق رأسه الرزايا حتى أصبح لا يحس الماء ولا يبالي حزنًا :
يقول الخزيبي :

لقد وقرتني الحادثات فما أرى لنازلة من ربها أتوجع
وقال أبو الطيب :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وقد وصف ضرب السيوف للرقاب ، وطعن الرماح للقلوب ، فقال :

كَأَنَّ الهَامَ فِي الهِجَا عَيُونَ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رِقَادٍ
 وَقَدْ صُغِفَتِ الْأَسْنَةُ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطُرُنْ إِلَّا فِي الْفَوَادِ
 وَانْظُرْ إِلَى تَصْوِيرَةِ الْمَوْتِ تَصْوِيرًا لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ
 وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصَهُ يَصُولُ بِلَا كَفٍّ وَيَسْمَى بِلَا رَجَلٍ
 أَمَا الْمَوْسِيقَى فَأَمْلَتْهَا كَثِيرَةٌ مِنْهَا :
 نَصِيكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ

فَالْمَوْتُ أَعْذَرُ لِي ، وَالصَّبْرُ أَجْلٌ بِي وَالْبَرُّ أَوْسَعُ ، وَالْدُنْيَا لِمَنْ غَلَبَتْ
 فَقَرُّ الْجَهْلُولِ بِلَا قَلْبٍ إِلَى أَدَبٍ فَقَرُّ الْحَمَارِ بِلَا رَأْسٍ إِلَى رَسَنِ

فَيَا شَوْقَ مَا أَبْقَى ، وَيَا لِي مِنَ النُّوَى وَيَا دَمْعُ مَا أَجْرَى ، وَيَا قَلْبَ مَا أَمْسَى !

ضَاقَ الزَّمَانُ وَوَجَّهَ الْأَرْضَ عَنْ مَلِكٍ مَلَأَ الزَّمَانُ وَمَلَأَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
 فَتَحَنَّنَ فِي جَدَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ وَالْبَرُّ فِي شُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي خُجَلٍ
 وَلِنَقْفٍ مِنَ الْبَيْتِ الثَّانِي مِنْ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ وَقَعَةُ قَصِيرَةٍ لِنَتَبِينَ مَا فِيهِ مِنْ صُورٍ
 مُتَقَابِلَةٍ ، وَأَضْدَادُ مَتَاعِ كَسَةٍ : الْجَذَلُ لَهُمُ وَالْوَجَلُ لِلرُّومِ ، وَالشُّغْلُ فِي الْبَرِّ وَالْخُجَلُ
 فِي الْبَحْرِ لِنَدَى يَدِيهِ

وَلِصُورِهِ طَابَعَ خَاصٌ تَعْرِفُ بِهِ ، وَذَلِكَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَا جُلِعَ بَيْنَ الْأَلْوَانِ الْمُتَضَادَّةِ ،
 وَالصِّفَاتِ الْمُتَقَابِلَةِ ؛ فَهُوَ كَالصُّورِ الْمَاهِرِ ، يَصُورُ الصُّورَةَ بِاللَّوْنِ الْأَسْوَدِ ، ثُمَّ يَجْلِلُ
 حَوَاشِيَهَا بِاللَّوْنِ الْأَبْيَضِ ، لِتَبْدُو الصُّورَةُ زَاهِيَةً زَاهِرَةً . أَوْ لَيْسَتْ الْعَيُونُ الَّتِي فِي
 طَرَفِهَا حَوَازٍ هِيَ تِلْكَ الَّتِي اشْتَدَّ سَوَادُهَا ، وَاشْتَدَّ بَيَاضُهَا فَكَانَتْ قَائِلَةً سَاحِرَةً ؟
 قَالَ يَمْدَحُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ :

يَا مَلِيكَ الْوَرَى الْمَفْرَقَ حَيًّا وَمَمَاتًا فِيهِمْ وَعِزًّا وَذَلَا
 . قُلْتُ اللَّهُ دَوْلَةً سَيْفُهَا أَنْتَ حُسَامًا بِالْكَرَمَاتِ مُحَلَّلًا

فيه أغنت الموالى بذلا وبه أفت الأعادى قتلا
 وإذا اهتز للندى كان بحرا وإذا اهتز للردى كان نصلا
 وإذا الأرض أظلت كان شمسا وإذا الأرض أمحت كان وبلا
 والطابع الثانى : أن خياله أكثر ما تستمد أجزاؤه من الحروب والمعارك
 والأسنة والرماح والطمع والضرب

غير أن هذا الفن عند المتنبي هو من نوع واحد ولون مطرد ؛ إذ كله مستمد
 من حياة مظلمة الجوانب كامدة الألوان ليس فيها أثر للبشاشة ولا بريق للابتسامة .
 لهذا كانت روح أبى الطيب التى سكبت فى هذا الفن روحا متقبضة مكافئة لم
 ترزق لطف مدخل ، ولا حسن احتيال ، ولم توهب رقة ملمس ولا نمومة مس ؛
 بل هى تستقبلك بالرماح والنصال حينما واجهتها ، وبالماعل والحصون أينما صادفها
 وبالزوابع والمواصف كلما لقيتها ، وبالسخط والحق أنى حادثتها وكاشفتها ؛ فضحكها
 غليظ خشن ، وصوتها مدو مفزع

وتركك فى الدنيا دويكا كأثما تداول سمع المرء أنمله العشر

لذا كره كثير من الناس أسلوب أبى الطيب ، ونفروا من فنه وشعره ، وثقل
 عليهم ظله ، وغلظ عليهم طبعه . هذا إلى أن شعره مستغرق فى نفسه مشحون
 بشئونه الخاصة ، ليس للإنسانية فيه نصيب ، ولا للمواطف المشتركة العامة منه قسط
 وأغلب الظن أن الذى أفسد على أبى الطيب فنه وبنّض إلى الناس جماله هى
 تلك العوامل الثلاثة : طبعه وبيئته ودراساته

أما طبعه فما فيه من عناد ، وما به من غرور ، قد حمل على ألا يهذب شعره
 ولا يقبل تنقيحه . وكبرياؤه عن التقيد بما يتقيد به الشعراء عادة ، وثورته على كل
 مألوف ، واحتقاره لكل تقليد ؛ ومزاجه النارى وأعصابه المتهبة ، وشذوذه فى كل
 شئ -- دفع به كل هذا إلى أن يأتى بالكلمات كيفما اتفقت ، ويصوغ البيت فى أى
 صورة وقعت . وزيادة منه فى عناده للناقدين وأغاظته لعملاء اللغة والنحويين يعيث
 كما يشاء ، فيقدم ويؤخر ، ويحذف ويحشو ، فيقع فى تكرير الحروف المطردة النغم

ويرى بالقافية المقدمة يختصم في فهمها الناس .

أنا ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
وها هو مثل يثير الضحك ويمثل لنا عناده وغروره . قال من قصيدة يمدح
بها سيف الدولة :

أَقِلْ أَنْلِ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدْ
زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفْضِلْ أَدْنِ سُرَّ صِلْ

ولما أنشد هذا البيت رآهم يمدون الفاظه فقال وزاد فيه :

أَقِلْ أَنْلِ أَنْ صُنِ احْمِلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدْ
زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبْ اغْفِرْ أَدْنِ سُرَّ صِلْ

فرآهم يستكثرون الحروف فقال :

عِشْ ابقِ اسْمُ سَدُّ قَدْ جُدْ مَرِ ائِنَّ رِفِ اسْمِ نَلْ
غِظْ اِرِمِ صِبْ اَحْمِ اغْزُ اسِبِ رُغْ زَعْ دِلْ اُنْ نَلْ

أفبعد هذا شذوذ ووراء هذا حق ؟

أما بيئته ، وأعنى البادية ، فهي صاحبة الأثر في استخدام الألفاظ الغريبة
والكلمات الخشنة النافرة التي لا تلائم ذوق القرن الرابع الهجري

أما دراساته فقد أوقفه تقليده لبعض الشعراء الذين أولع بهم في الإغراب
والتنقيب عن الوحشي من حكم الجاهلية والتورك على الصيغ الشاذة والتراكيب
الجافة والتحدائق في الأساليب ، والأكثر من الجناس والمقابلة . وأستاذه في
ذلك أبو تمام .

ثم دراسته للفلسفة والعلوم جملة يدخل ألفاظ المصطلحات العلمية في الأساليب
الشعرية ويستخدم التراكيب المنطقية . قال :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
فقليل : تخلصُ نفسُ المرءِ سائلةً وقيل : تشرَّكُ جسمُ المرءِ في العطبِ

من اقضى بسوى الهندى حاجته أجاب كل سؤال عن هل بل

ولا واحداً فى ذا الورى من جماعة ولا البعض من كل ولكنك الضيف
ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف
وهناك هنات أخرى عرف بها أسلوبه نكتفى عنها بما ذكرناه

وأظهر الخصائص فى تراكيه الأكثر من استخدام أسلوب القصر :
وما الدهر إلا من رواة قصائد * إنما التهئات للأكفاء * إنما تنجح المقالة فى المرء
وتفسير ذلك سهل ، فهو أثر من الوثوق بالنفس والاعتداد بالرأى ، أو صورة من
صور المبالغة

والخاصة الأخرى استخدام التصغير فى أساليب الهجاء ، وهذه صورة لحق
النفس والاستخاف والتهكم :

أولى اللثام كوفير بمعدرة فى كل لؤم وبعض المذر تفنيد

ونام الخويدم عن ليلنا وقد نام قبل عمى لا كرى

أذم إلى أهل الزمان أهيله فأعلمهم قدم وأحزهم وغد
وبعد فهل وفق المتنبي وأجاد ؟ نعم أجاد كل الإجابة فحاسنه ترى على مساوئه ،
وجال أسلوبه يزكو على قبيحه . إلا أن الذى أظهر تلك المساوى وكبر من تلك
الهفوات ، المتنبي نفسه ، فتماظه وكبره وغروره وتماليه كثر من حساده فأخذوا
يحصون عليه السيئات بحق وبغير حق ، ويجسمون الهنات منصفين تارة وغير
منصفين أخرى

أما فى الحق والإنصاف فقد ظفر المتنبي الظفر كله بسلامة المعانى وجمال الخيال
وقوة التراكيب ، وإن خلا من جمال التوشية ومحاسن التطرية ونومة الحضارة :
ما أوجه الحضرة المستحسنات به كأوجه البدويات الراعيب
حسن الحضارة محبوب بتطرية وفى البداوة حسن غير محبوب
أفدى طباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
عبر الرهائب صمودة